



54

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث عشر

الوحدة والصراع

3. الانقسام المزدوج

لا شك في أن كل من العداوات الثأرية، والحس المندفع تجاه السمعة الحسنة، والتشديد الكبير على ترابط الجماعة، جميعها تشكل المنابع الثلاثة الرئيسية لصفة الميل إلى الصراع التي تطبع بطابعها كل جوانب حياة الجماعة عند العرب؛ وهنالك عامل آخر قام خلال العصور بتضخيم الشعور العربي بالريبة والكراهية تجاه الغرباء عن هذه الجماعة. إن هذا العامل، وهو جزء جوهري من العرف النَّسَبِي الذي يرجع إلى أيام الوثنية، يقوم على أن العرب لا يعود نسبهم إلى سلف واحد، وإنما إلى سلفين عاشا في زمانين ومكانين مختلفين: في الجزيرة العربية، وأطرافها الشمالية؛ وعلى هذا الأساس يشكل العرب إلى أيامنا هذه مجموعتين منفصلتين. وبالطبع، لا يعود هذا العرف النَّسَبِي إلى أساس علمي، وإنما هو أسطورة، ولكنها أسطورة متينة قوية التأثير يتشرب بها عقل المجموعة، أو (الشطر Moiety) بحسب اصطلاحات الأنثروبولوجيا، بما في ذلك من صورة نمطية محببة عن الذات وما يستتبع ذلك من صورة نمطية للشطر الآخر غالبا ما تكون غير محببة واستصغارية وعدوانية. وحيثما وجد هذا النظام المزدوج، وهو موجود بكثرة خارج الشرق الأوسط، يسود التنافس والعداء بين الشطرين. ودائما تكون الزيجات المختلطة شائعة ضمن الشطرين: أي أن الرجل من الشطر (أ) عليه أن يتخذ له زوجة من الشطر (ب)، والعكس بالعكس. أما في الشرق الأوسط فالحالة معاكسة؛ إذ يكون الزواج ضمن الشطر ذاته، وكذلك يكون الحال ضمن تقسيمات الشطر نفسه، مما يؤدي إلى حالة من الاغتراب بين المجموعات السكانية.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

وفقا للأعراف، فإن قحطان هو أحد هذين السلفين. وهو يعتبر الجد المشترك لكافة القبائل العربية الجنوبية: أما السلف الثاني فهو عدنان جد كافة القبائل العربية الشمالية. ويعود أصل هذا العرف الذي يقسم العرب إلى شطرين شمالي وجنوبي إلى عصر ما قبل الإسلام. ووردت إشارة إلى ذلك في كتابات المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (Procopius) الذي عاش في القرن السادس الميلادي. وكان هنالك قديما اتحاد قبائل قبل ظهور الإسلام يدعى قحطان أو اليمن (بمعنى الجنوب). ولا تزال القبائل القحطانية تقطن مساحات شاسعة جنوب مكة. وتعتبر اليمن في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية الموطن الأصلي لهذه القبائل الجنوبية كافة.

يقول العارفون من علماء الأنساب العرب أن قحطان هو يقطان بن عابر المذكور في الكتاب المقدس¹ (التكوين 10: 25). وأن عدنان هو ابن إسماعيل بن إبراهيم. وبما أن قدم شجرة العائلة يدل على نبلها عند علماء الأنساب، فإن القحطانيين أنبل من العدنانيين. وذلك لأن قحطان يفصله عن نوح خمسة أجيال. بينما هنالك 12 جيلا بين نوح وعدنان. وبهذا يكون القحطانيون أو القبائل الجنوبية أكثر أصالة من العدنانيين. بينما يعتبر العدنانيون أو القبائل الشمالية مجرد عناصر مستعربة. ولمزيد من التعقيد، يشار إلى هذين الشطرين بمصطلحات أخرى: كأن يدعى القحطانيون باليمنانيين، ويشار إلى العدنانيين بقيس أو معد أو نزار أو مضر.

توجد نقطتان في هذه الأسطورة النسبية لا تزالان تلعبان دورا مهما في العقل العربي المعاصر: الأولى أن جميع الشعوب في الأنحاء التي فتحها العرب لم تكتف بالاعتقاد بأنها تنتمي إلى العرق العربي بشكل عام. وإنما إلى قحطان أو عدنان. أما النقطة الأخرى فتتمثل في أن تلك الشعوب عندما تعتنق ذلك الانتماء فهي تنغمس في الصراع العسكري والسياسي والعائلي والعرقى الدائر بين الشطرين؛ وتتعبير آخر: تصبح تلك الشعوب عربا تابعة لأحد الفريقين. وبذلك تقوم بنقل كافة التنافسات الداخلية في ما بينها وبعاد

(1) العهد القديم: كتاب التكوين: (10: 25).

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

ترسيمها وفق الشروط المحلية الجديدة للتنافس العربي القديم بين عدنان وقحطان، أو القيسيين واليمانيين.

بما أن الأنساب، وبالأخص ما فيها من الافتخار بالأسلاف ونقاء الدم، ذات أهمية كبرى في البنية الأخلاقية العربية، فإن اعتناق الأنساب العربية من قبل الشعوب في البلاد التي فتحها العرب في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا جعلهم يبدون كالعرب الحقيقيين بعد أن لف النسيان خيالية هذه النسب بعد عدة أجيال، وبهذه الطريقة تم اعتبار الأرمن في العراق، والحاميين في مصر، والبربر في المغرب، وسكان اسبانيا الأصليين فروعاً للأسلاف الذين يدعي العرب الأصليون تحدرهم منهم، وجنبا إلى جنب مع الادعاء بالتحدر من سلف عربي شمالي أو جنوبي، اعتنقت تلك الشعوب الروح القتالية التي عبأت الشطرين لقتال بعضهما بعضاً، ولم يمر وقت طويل على الفتوحات حتى وقعت معارك دموية بين الفروع الجديدة لغصني شجرة النسب العربية النابتة في مكان بعيد، وكان أصغر حدث قادراً على قدح شرارة حرب طويلة بين طرفين، فمثلاً شهدت دمشق حرباً قاسية دامت لسنتين لأن «شمالياً» سرق بطيخة من حديقة «جنوبي»، وفي مدينة مرسية الإسبانية جرى الدم لعدة سنين لأن «شمالياً» قطف ورقة عنب من حديقة «جنوبي»، وفي أوائل القرن التاسع دارت حرب لمدة سبع سنوات بين الفريقين، وقبل أن ينتهي هذا القرن خسر العرب تقريباً سيطرتهم على مقاطعة الفيرا في اسبانيا بسبب الخصومات ذاتها، ويلخص ذلك المشهد الكاتب فيليب حتي بقوله:

أينما ذهبت، في العاصمة كما في الولايات، على ضفاف نهر السند، وشواطئ صقلية، وحواف الصحراء، في كل ذلك تشعر بعداوات الأسلاف وقد تحولت إلى اصطفا في حزبين سياسيين، أحدهما ضد الآخر. لقد كان ذلك عاملاً قوياً ساهم في الإيقاف الكامل لتقدم القوات المسلمة في فرنسا، وانهيار دولة الخلافة في الأندلس¹.

(1) فيليب حتي: تاريخ العرب: ص 281.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

واستمر النزاع بين الفريقين إلى الوقت الحاضر في كافة أنحاء العالم العربي. وأدت نزعة الانقسام بين فريقين متنافسين في كثير من الأماكن إلى ظهور جماعات محلية ترجع أصولها إلى أحد السلفين: قيسية (عدنانية) أو يمانية (قحطانية). وفي حالات أخرى تكررت أكثر من السابقة. حدث أن يكون إخوة وأقارب مصدرا لذرية تنتمي إلى الفريقين، وذلك لم يمنع من وجود العداء بينهما. لقد كان القتال في فلسطين بين الفريقين علنيا ودائما إلى حد جعل المؤرخ والفيلسوف الفرنسي قسطنطين فرانسوا فولني يقول في نهاية القرن الثامن عشر:

إن هذا النزاع الذي استمر على امتداد البلاد منذ أيام العرب القدماء قد تسبب بحرب أهلية دائمة... وأدى الدمار المتبادل للفريقين المتنافسين إلى أن يبدو هذا الجزء من سوريا محطما أكثر من غيره.¹

استمرت المناوشات بين القيسية واليمانية بشكل متواصل في القرن العشرين. ولم يكن غريبا على العين حينها مرأى العلم الأبيض لأهل الشمال والعلم الأحمر لأهل الجنوب في كافة المناسبات الرسمية. وليس من المستبعد أن ترجع هذه الأعلام في أصلها إلى مصر القديمة حيث كان لون التاج أبيض في مصر العليا، وأحمر في مصر السفلى، ولا تزال العشائر المصرية تستخدم اللونين كشعارات لها في أيامنا هذه.

في سياق التطورات الحديثة التي طرأت على عدة دول عربية، تحول الانقسام النسبي القديم تدريجيا إلى اصطفايات سياسية متنافسة تتمحور كل منها حول واحدة من العوائل المتعددية. وعندما حصل مثل هذا التحول تضاءلت أهمية عنصر النسب شيئا فشيئا، وصار بإمكان الأفراد وحتى الجماعات أن تغير ولاعها وتتحالف مع الجماعة المضادة إن انجذبت لها لسبب أو لآخر. وثمة مثال قديم على ذلك التحول حصل في القرن الثامن، حيث قام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بالتحول من اليمانية إلى القيسية لما يبدو

(1) قسطنطين فرانسوا فولني (C. F. Volney): رحلات عبر سوريا ومصر في الفترة (1783-1785): ج 2 ص 203.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

أنها أسباب مالية بحتة. وكمثال حديث على ذلك نذكر ما يجري في دولة عمان المعاصرة: إذ ينبغي على القبيلة الضعيفة التي تسكن بالقرب من تحالف قبلي قوي، ومهما كان أصلها. أن تضع نفسها تحت حماية جيرانها الأقوياء. وأن تلتحق في نهاية الأمر بفريقهم السياسي الذي لا يزال يعتبر وفق وجهة النظر الشعبية مجموعة نسبية كبيرة واحدة. ولكن سواء تم اعتبار الشطرين مجموعتين نسبيتين، أم قامتا بالتحول إلى أحزاب سياسية، فإن أنماط التنافس والعداء تبقى دون تغيير. وكذلك حال الصور النمطية السلبية التي يعتقد بها كل طرف حول الآخر.

إن لأسطورة النسب العربي المزدوج والانقسام الذي يرافقه أهمية في دراسة النفسية العربية. وهذا يعود في الأساس إلى ما ينتج عن ذلك من استعداد مسبق للخصومة والعداء المدمرين على عدة أصعدة مختلفة. وبشكل عام، لا يعلم العربي العادي، ولا قيادته على حد سواء، الكثير عن العداوة القديمة بين الفريقين، ولا عن مجرد وجودهما. ولكن أعراف القتال، وتحشيد الجماعة لأفرادها ضد جماعة أخرى تحتل موقعا موازيا في السلم الاجتماعي، والضغط المتواصل لتأييد وإثبات أسبقية الجماعة على غيرها. كل ذلك يجري في العربي مجرى الدم. ولا شك في أن هذه العادات والتقاليد تساهم بشكل كبير في الميل إلى الصراع الذي لا يزال يميز العلاقات العربية في كافة مستويات البنى القبلية والاجتماعية والسياسية.